IMAGE: CRICK CRACK CLUB

ألف حكاية وحكاية

مرت قرون على فن حكاية القصة، ومازال وقعها يستحوذ على اهتمام السامعين حول العالم.

نص • هلا الخوري
الصور • Getty Images

البدر مكتمل والنسيم العليل يتلاعب بين الأشجار. إنها ليلة صيف حالمة في جبال فرنسا الجنوبية، والهدوء يخيم على حديقة "سيفين" الطبيعية. يخترق السكون صدى خطى متقاربة، ثم يرتفع بينها صوت واحد، التمت حول صاحبه مجموعة من الناس، يرتقبون كل كلمة تتفوه بها شفتاه، وكأن مصيرهم يتعلق به. إنه الحكواتي.

في كل صيف، يتخذ الحكواتيون من حديقة "سيفين" مسرحاً طبيعياً لهم، يستقطب هواة القصة من جميع أنحاء العالم للمشاركة في "أسبوع الحكايات". لا حاجة هنا لخشبة مسرح، ولا مكبرات صوت أو أنوار ساطعة أو ستارة. ففي كل مساء من هذا الأسبوع، يصحب الحكواتي جمهوره كباراً صغاراً في رحلة سير على الأقدام. ويبدأ بقص حكاياته المشوّقة أثناء المشوار، ثم ينتهي الجميع إلى فسحة يستريحون فيها. ويتابع الحكواتي سرد رواياته تحت النجوم، حيث تلتقي الطبيعة والخيال في ليلة لا تنسى. وفي بلدة "ثواراه" المجاورة لقاء من نوع آخر، تجتمع فيه القصة بالرياضة. إنها سهرة متنقلة فريدة من نوعها، يترافق خلالها سرد الحكايات والمشي عبر الجبال الفرنسية الخلابة طوال الليل. وعند بزوغ الفجر، تختتم الرحلة بفطور تقليدي بين أحضان الطبيعة.

لقد تعلّق الفرنسيون بفن قص الحكاية منذ زمن بعيد، وخصّوه باحتفالات سنوية شاعت قبل عهد التلفزيون. منها حفل "الحكايات واللقاءات"، الذي ما زال يقام حتى اليوم في شهر فبراير من كل عام في منطقة "سيفين".

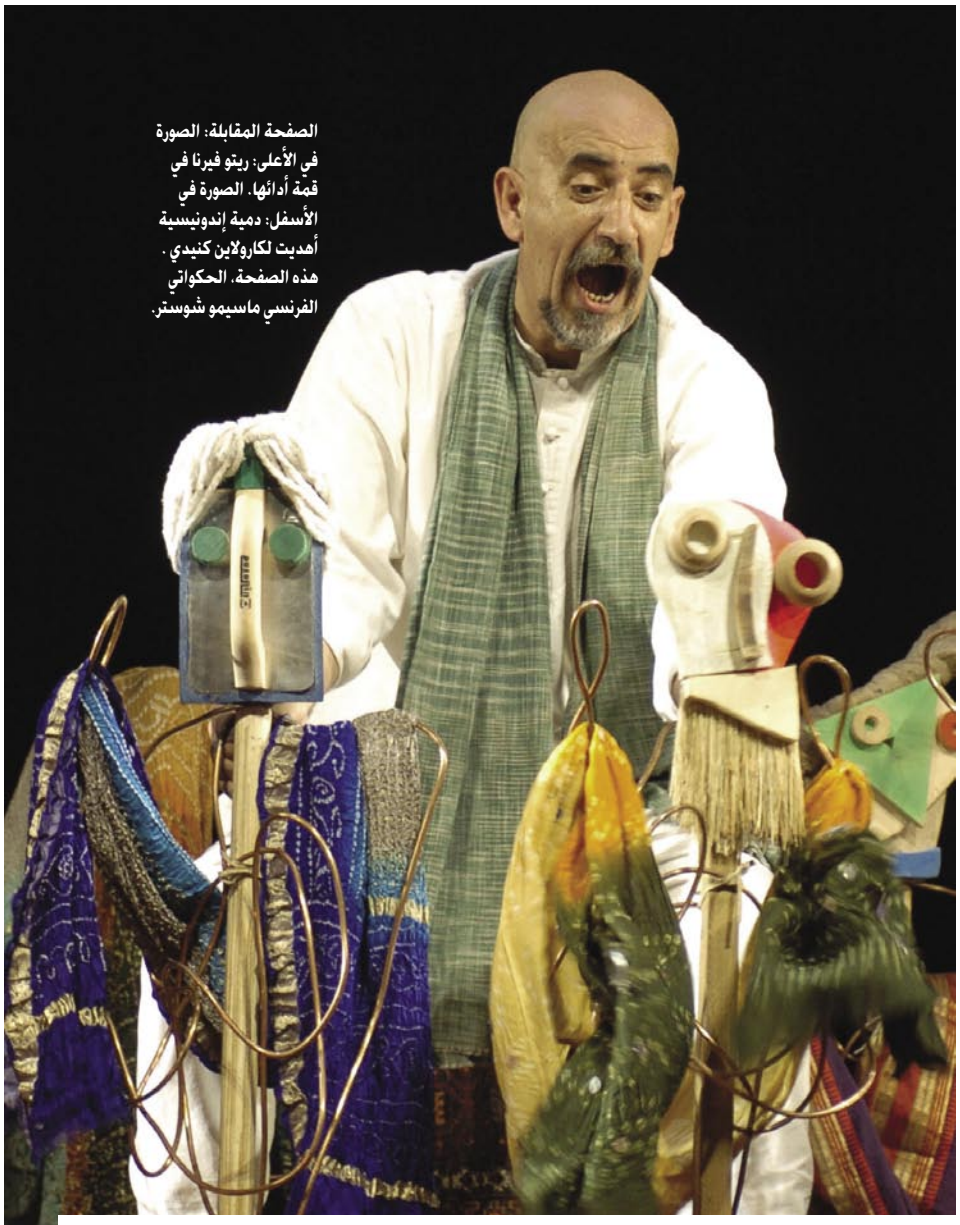

الصفحة المقابلة: الصورة في الأعلى: ريتو فيرنا في قمة أدائها. الصورة في الأسفل: دمية إندونيسية أهديت لكارولاين كنيدي . هذه الصفحة، الحكواتي الفرنسي ماسيمو شوستر.

حيث تقام سهرات طويلة يجتمع فيها الأهالي حول الموقد، ويتناولون الكستناء بينما يستمعون للقصص الشيقة. كما وتنظم مؤسسة "أنسيف" الفرنسية يوماً وطنياً تكرم به هذا التراث العريق، إذ تزخر البلاد بمختلف الأنشطة التي يتألق بها الحكواتيون المحترفون والهواة من شتى أنحاء العالم.

ولعل أكبر دليل على نجاح هذا الفن وشعبيته الواسعة في فرنسا، يتجلى بالإقبال الكبير على احترافه. فقد كشف إحصاء رسمي أجري عام ٢٠٠٠ عن ثلاثمائة محترف وأربعة آلاف من هواة قصّ الحكاية. كما وتشهد فرنسا ما يزيد عن ٢٥ ألف حدث قصصي في السنة، يتابعها نحو المليونين من عشاق القصة المحكية. ويعتبر الراوي المحترف "آلان هوزيه" أن أسرار النجاح تكمن بالبراعة في إضفاء الحيوية على شخصيات القصة، والعواطف القوية التي تجذب الجمهور إلى التعلق بأحداثها وترقّب نتائجها.

وبينما يتهافت عشاق القصة في فرنسا على المسارح للتمتع بسماعها، وجد الحكواتي البريطاني "نافي توماس" Taffy Thomas أسلوباً معاكساً لاستقطاب جمهوره، إذ يجوب "نافي" البلاد حاملاً باقة من القصص الساحرة، يلقيها بأساليب مبتكرة، تأسر المستمعين. فتجدونه حيناً يسرد قصصه في شوارع المدن والقرى البريطانية، وأحياناً يتنقل عبر البلاد مع شركته الفريدة للدمى المتحركة "المصباح السحري". ولا تستغربوا إن مر بكم على دراجته ثلاثية العجلات التي تحمل اسم "أوقفني لتسمع حكاية".

في الثمانينات، خطرت لنافي فكرة بارعة، قرر إشراك جمهوره بتنفيذها. فشرع أولاً بقصّ حكاياته مرتدياً رداءً أبيض، ثم وزع أقلاماً ملونة على أفراد من الحضور، ودعاهم لرسم صور من قصصه على ردائه. وبعد بضع سنوات، التقى "نافي" بأحد أشهر مصممي النقش على القماش، "بادي كيلر". وتحقق إثر ذلك اللقاء حلم "نافي" بتنفيذ "معطف الحكايات". فجاء المعطف قطعة فنية مزدانة بأجمل الرسوم والتصاميم. وصار الراوي يرتدي معطفه، ويدعو المستمعين ليختاروا إحدى الرسوم التي تزينه، فيحكي لهم حكايتها.

لقد نجح البريطانيون بالحفاظ على تراث القصة المحكية، حيث نشأ عدد من المؤسسات لرعاية هذا الفن الأصيل والاحتفال به سنوياً. وتُشجع بعض المؤسسات مشاركة حكواتيين من جميع أنحاء العالم، حفاظاً على تقاليدهم وحرصاً عليها من الاندثار. منها مركز لندن لرواية القصص العالمية London Centre for International Storytelling الذي نشأ بفضل "نادي كريك كراك" لحكاية القصص The Crick Crack Club. وقد شاركت بالبرامج أسماء عالمية منها شيرين الأنصاري، وهي حكواتية مصرية تعيش في العاصمة لندن، وتتحف مستمعيها بأروع حكايات التراث العربي مثل "كليلة ودمنة" و"ألف ليلة وليلة" وغيرها.

كما هناك الحكواتي البريطاني "بن هاجرتي"، مؤسس "نادي كريك كراك"، الذي يسلّي مستمعيه بمجموعة واسعة تربو عن ٢٥٠ قصة من التراث الشعبي، يؤديها في شتى المواقع، من الكهوف البسيطة إلى الصالات الفارهة. ومن الهند، تأتي الراوية والمغنية الموهوبة "ريتو فيرنا" التي عاشت فن الرواية منذ حداثتها، وشرعت بتأدية قصصها منذ كانت في السادسة من العمر. وبفضل العروض المنتشرة عبر العاصمة البريطانية على مدار السنة، لا بد أن يتسنى للزائرين العثور على عرض رائع يأخذهم إلى عالم الخيال.

وفي العاصمة البلجيكية بروكسل، ارتبطت رواية القصة بتقليد فريد باتت تتبعه سلالة عريقة من محركي الدمى منذ أكثر من ١٧٠ سنة. إذ يتوارث أفراد السلالة لقب "تون"، هو لقب لا يمنح إلا بموافقة خاصة يجمع عليها صاحب اللقب السابق والجمهور معاً. إن لقب "تون" كناية عن تحريف لاسم حامله الأول، "أنطوان جنتي"، الذي بزغ على يده فجر الدمى المتحركة في بلجيكا عام ١٨٣٠. أما اليوم، فقد انتقل اللقب إلى "جوزي غيال" الذي تم تعيينه "التون السابع"، وهو محترف بارع بسرد القصص، يتهافت البلجيكيون والسياح لسماع قصصه. ولا تقتصر خبرته على سرد حكايته عبر الدمى فحسب، بل تشمل التمثيل المسرحي والبرامج الإذاعية. وبفضله، ثبت فن حكاية القصة في البلاد بعد أن أسس مسرحاً للدمى خاصاً بالأطفال، وعمل على نقل مسرح "التون" الشهير Le Theatre Royal De Toone إلى موقع ثابت. وقد وقع اختياره على منزل تاريخي يعود للقرن السابع عشر، في الشارع المعروف "بوتي رو دي بوشيه"، وبعد أن تم ترميمه، صار المبنى اليوم يحوي مسرحاً ومشغلاً لصناعة الدمى، بالإضافة إلى مكتبة ومتحف خاص بهذا الفن التقليدي الرائع.

مع انتشار ألوان القصص الشعبي التراثية حول العالم، توسعت الرقعة أمام متتبعيها، فصارت

لقد تعلّق الفرنسيون بفن قص الحكاية منذ زمن بعيد، وخصّوه باحتفالات سنوية شاعت قبل عهد التلفزيون. منها حفل "الحكايات واللقاءات"، الذي ما زال يقام حتى اليوم في منطقة "سيفين"، في شهر فبراير من كل سنة.

في الهند، تزخر البلاد بألوان من فنون الحكايا تختلف باختلاف مناطق البلاد الشاسعة، فتكاد لا تحصى.

بالنسبة للبعض سياحة قائمة بحد ذاتها. وقد دفع هذا الاهتمام ببعض الدول والمنظمات العالمية لإحياء التقاليد الشعبية والارتقاء بها إلى مستوى عالمي. ومن أنجح الأمثلة على ذلك إعلان منظمة اليونيسكو، عام ٢٠٠٣، أن مسرح "وايانغ" الإندونيسي للدمى المتحركة Wayang Puppet Theatre يعتبر تحفة من تحف التراث الشفهي. "وايانغ كوليت" هو فن مسرحي رائع، يحاكي الحواس بأسلوب فريد، إذ يعتمد على ظلال الدمى، تصحبها أنغام الموسيقى التقليدية. تعرف الفرق الموسيقية المرافقة للعرض باسم "أوركسترا غاميلان". وهي بآلاتها الغريبة، وملابس عازفيها التقليدية تعتبر فناً بحد ذاتها، يأسر السمع والأنظار. تضم الأوركسترا مجموعة مميزة من القطع الموسيقية، منها أجراس قرصية مصنوعة من البرونز، زيلوفونات، قيثارات ذات وترين، ونايات، بالإضافة إلى آلات إيقاعية متنوعة. أما الدمى، فهي أشبه بتحف فنية ترمز إلى تراث البلاد وماضيها العريق. وتعتبر صناعة الدمى من أكثر الحرف الإندونيسية تطلباً، كما يولي الإندونيسيون محركي الدمى أجل اعتبار.

ارتكزت قصص "وايانغ كوليت" في الماضي على حكايات من ملحمتي رامايانا ومهاباراتا، التي تم دمجها بالفلكلور الإندونيسي. أما اليوم، فتقتصر على المواضيع الاجتماعية. يستمر العرض التقليدي طوال الليل، انتهاءً ببزوغ الفجر. غير أنه تم تعديل بعض العروض المقامة في مدينة جاكارتا لتلائم احتياجات الحضور بشكل عملي. وبما أنها تلاقي شعبية واسعة، يستحسن القيام بحجز مسبق لحضورها.

في الهند، تزخر البلاد بألوان من فنون الحكايا تختلف باختلاف مناطق البلاد الشاسعة، فتكاد لا تحصى. نذكر منها رواية القصص مع اللفائف المزينة، ومع علبة "كافاد" ذات الأقسام المتعددة، وهما وسيلتان شاع استعمالهما في منطقة راجستان. أما منطقة أندهرا براديش الجنوبية، فقد اشتهرت بفرق "برا كاثا"، التي تتألف عادة من ثلاثة قصّاصين. يقوم واحد منهم بدور الراوي الأساسي، ويعاونه الثاني بالتعليق على القصة، وطرح الأسئلة لإثارة الحماس وتسهيل تسلسل الأحداث. أما الثالث، فهو لاعب الطبلة الذي يدعم العرض بالمؤثرات الصوتية. وقد شاع إرفاق القصة بمختلف الآلات الموسيقية، كالأجراس والآلات الوترية والطبلة وغيرها من آلات الإيقاع، التي تضفي بانسياب صوتها جواً أصيلاً، وتماشي أحداث القصة لتزيد من التأثير والحماس.

وفي تايلاند، برز اسم "جو لويس"، المحرّف عن اللقب "لبو"، كأبرع محرك دمى عرفته البلاد في القرن العشرين. ويعود الفضل له بإعادة إحياء فن شعبي كان قد واجه الاندثار التام. فبعد اختفاء فن "هان لاكورن ليك" عن الساحة لخمسين عاماً، أخذ "جو لويس" على عاتقه مهمة إعادة إحيائه بنفسه. عمل "جو" لتحقيق هدفه دون انقطاع، فقام بتصميم الدمى التقليدية، وإخراج العروض وتحريك الدمى بنفسه. وحرصاً منه على استمرارية هذا الفن الأصيل، أصر على تعليم أسراره لأولاده. وكان خير ما قام به، إذ انتقل المسرح بعد وفاته لابنه، الذي سار على خطى والده بكل إخلاص. ويقوم

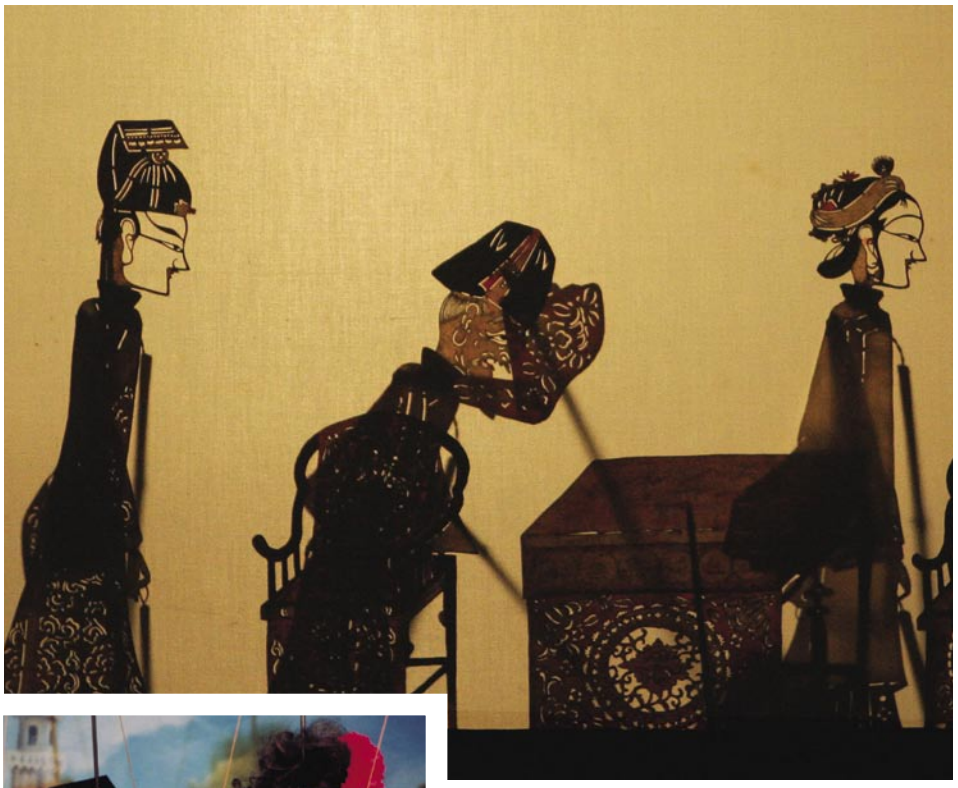

الصفحة المقابلة: حكواتي من كيرالا في عرض تقليدي.
هذه الصفحة: من الأسفل باتجاه عقارب الساعة: تافي توماس ومعطف الحكايات، دمى الظلال الإندونيسية، مسرح "التون" في بروكسل.

IMAGE: TAFFY THOMAS

IMAGE: LE THEATRE ROYAL DE TOONE

الابن اليوم بدوره بنقل المعرفة لكافة أفراد العائلة، فيخلد ذكرى والده، ويعرّف الجيل الجديد إلى تراث الأجداد في آن معاً. وقد أصبح اليوم بإمكان زائري مدينة بانكوك التمتع بالعروض الحية في مسرح "جو لويس" Joe Louis Theater، ومشاهدة واحد من أجمل الفنون التقليدية التي تعرفها المدينة.

أما الحكواتي العربي، فيعيد ذكره إلى أذهاننا أياماً أكثر هدوءاً وهناءً من حاضرنا سريع الوتيرة. فكان المستمعون يتجمهرون حوله في سهرات المنازل والمقاهي، فيرفّه عن عنائهم، ويأسرهم بسحر حكاياته المفعمة بالحيوية والخيال. وغالباً ما دارت القصص حول القيم العربية السامية من بطولة وشرف وشجاعة وكرم. وكلما برع الحكواتي بفنّه، زاد تعلق جمهوره بحكاياته. فباتوا لا يغادرون السهرة قبل معرفة نهاية كل قصة ليطمئنوا. ومازال الحكواتي "أبو شادي" يتحف جمهوره الوفي في مقهى النوفرة في دمشق، فيقصّ عليهم قصصاً من تراثنا العربي الزاخر بالشخصيات المثيرة، مثل عنترة بن شداد والزير سالم وغيرهما.

ولم تخلُ حكاية القصة العربية من المؤثرات الفريدة. فقد شاعت قديماً، في بعض المناطق، صناديق مزينة استعان بها الراوي لقص حكاياته المشوقة. احتوى الصندوق على رسوم مفصلة رائعة، ينظر إليها المتفرج من خلال ثقب صغير، فعرفت باسم "صندوق الفرجة". وكان الحكواتي يحمل صندوقه متنقلاً من قرية إلى أخرى، فيلتم شمل أهل القرية عند وصوله، ويتهافتون على سماع قصصه المثيرة، بينما يتابعون عرض صور الصندوق المزخرفة.

تنوعت وسائل حكاية القصة حول العالم، وبرع الحكواتيون بسردها، كل بوسيلته الفريدة ومؤثراته الخاصة. فانتشر أداؤها بشتى الأساليب، يرمز كل منها إلى تراث شعبه وتقاليده العريقة. وكيفما وجد هذا الفن الأصيل، يبقى خير وسيلة للترفيه عن الناس وتقريبهم من بعضهم البعض، وطرح المواضيع الشيقة والقيم السامية التي تغذي النفوس. ■

فن صناعة دمى الظلال الإندونيسية

تُصنع دمى الظلال من جلد الجاموس، الذي تجب معالجته ليصبح ملائماً للاستعمال، عبر عملية معقدة، تستغرق أحياناً عقداً كاملاً من الزمن. وعندما يجهز الجلد، يتم حفره على شكل الشخصية المطلوبة، ثم يصبغ بأصباغ تقليدية رائعة. يفضّل محركو الدمى استعمال تلك التي حفرت وصبغت بدقة متناهية، والتي مر زمن على استعمالها. إذ يعتبرون أنها اكتسبت ميزات ساحرة تأسر المشاهدين. وكلما قدمت الدمية، كلما ارتفع سعرها.
تعبّر كل شخصية من شخصيات الدمى عن رمز معين، وهنا تكمن أهمية تفاصيلها ودقة تنفيذها. فلكل جانب من ملامحها تأثيره، من درجة انحناء الرأس، وانحدار خط الفم، وغيرها.
تصنع العصي التي تحرك بها الدمى من قرن الجاموس، وأزرار تثبيت الأطراف من المعدن أو الخشب أو الخيزران. أما الدمى المستعملة في القصور الملكية، فهي أشبه بقطع فنية نادرة من الذهب المرصع بالأحجار الكريمة البراقة.